القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

هاشم
ابن عبد مناف

عبد الحميد جودة السحار

١

١

كان سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام ، يعيشُ مع أهلِه بأرضِ فِلَسطين ، فأمرهُ اللّه سبحانَه وتعالى ، أن يأخذَ زوجَته هاجَرَ وابنَه إسماعيل ، وأن يرحلَ بهما إلى أرضِ الحِجاز ، وأن يتركهما في مكانٍ بالصحراء ، مكان مكةَ الآن . وكان اللّه يريدُ أن يجعلَ من أولادِ إسماعيلَ أمةً عظيمة . فأطاع سيدُنا إبراهيمُ أمرَ اللّه ، وأخذ زوجتَه وابنَه إلى الحجاز ، وتركهُما في مكانٍ لا زرعَ فيه ولا ماء ، وعاد إلى فِلَسطين .

وأحسَّ إسماعيلُ عطشًا ، وكان صغيرا ، فطلبَ من أمِّه أن يشرب ، وكان الماءُ الذى معها قد نفِد ، فتركْتهُ فى الصحْراء ، وجرت تبحثُ له عن ماء .

ولكنها لم تجدْ أىَّ ماء ، فعادت إلى مكانِ ابنها وهى حزينةٌ مهمومة . فرأت أنَّ اللّهَ سبحانَه وتعالى ، لم ينسَها هى وابنَها فى ذلك المكان القَفْر ، بل أخرجَ لهُ الماءَ من الأرض . وكان للماءِ صوتُ زَمْزَمة . فسُميَت البئرُ « زمزم » . فشرِب منها إسماعيل ، وشربت منها هاجر ، وعاشَا من ذلك الوقتِ إلى جوارها .

وبعد مدّة ، جاء سيدُنا إبراهيمُ يزورُهما ؛ فأمر اللّه إبراهيمَ وإسماعيلَ أن يُعيدا بناءَ الكعبة ، وهى أوّلُ بيتٍ بُنىَ للناسِ ليعبُدُوا اللّهَ فيه ، وكانت قد تَهدَّمت ، فأخذا يُنفّذانِ أمرَ اللّه ، ويدعُوان : ربَّنا وابعثْ فيهم رسولا منهم .

لم يأمرِ اللّهُ إبراهيمَ بتركِ هاجرَ وإسماعيلَ فى الصحْراء ، إلا لحكمةٍ كان يَعلمُها اللّهُ وحدَه ، فقد وعدَ إبراهيمَ أنّه سيُكثّرُ أولادَ ابنِه إسماعيل ، وكان مُقَدّرا أن يَخرجَ من ذُرّيّتِهِ رسولٌ عظيمٌ لهدايةِ النّاس ، هو محمدُ بنُ عبدِ اللّه ، رسولُ اللّه .

٢

أخذت القوافلُ تمرُّ ببئرِ زمزم ، تشربُ منها ، وتستريحُ عندها ، فتكوّنت هناك محطّةٌ للقوافل ، أخذتْ تتّسع على الأيام ، حتى أصبحتْ مدينةً تجاريةً عظيمة ، تعرفُ بمكة .

وكثُر نَسلُ إسماعيلَ وتفرّقوا قبائِل ، وكانت قبيلةُ قُريش أشهرَ هذه القبائل ، وكانَ سيِّدُ قريش هو الذى يُضيِّفُ من مالِه ومالِ الأغنياء ، الفقراءَ الذين يأتونَ من أنحاء جزيرةِ العربِ لزيارةِ بيتِ اللّه ،

وكان هذا التكريمُ والإطعامُ يسمّى الرِّفادَة . وكان هو الّذِى يسقِى الحُجّاج ، ويُسمَّى هذا السِّقايَة . وكان هو الّذِى إذا قامت حربٌ بين قُريش وقبيلةٍ أخرى ، يُقدِّم رايةَ الحربِ إلى القائد ، ويُسمى هذا اللّواء . وكانت الرِّفادةُ والسِّقَايةُ واللّواءُ من علاماتِ الشرفِ والسيادة ، وكانت كلُّها فى قُريش ، لأنَّ قريشًا كانت أغنى قبيلةٍ فى العربِ وأشْرَفَها .

وعَلَى مرِّ السِّنين ، مُلِئَتْ بئرُ زمزَمَ بالرِّمال ، واختفَتْ ولم يَعُدْ يعرِفُ مكانَها أحد ؛ وعلى مرِّ السِّنين ، نَسِيَ العربُ عبادةَ اللّه ، وحمَلُوا معهم من البلاد التى كانوا يزُورونَها ، أصنامًا وضعُوها فى الكعبة ، بيتِ اللّهِ الحرام ، وأخذُوا يعبدُونها . وكثُرت الأصنامُ فى الكعبة ، حتى صارتْ ثلاثَمائةٍ وستّينَ صَنما ، فكان العربُ يذْهَبُون إليها فى موسمِ

الحَجّ ، يزُورونَها ويعَظّمونَها ، ويعْبدونَ الأصنامَ فيها ، دون أن يهْتدوا إلى أنَّ الكعبةَ إنما بُنيت ليُعْبَدَ فيها اللّهُ وحدَه .

٣

جلسَ عبدُ منافٍ في دارِه ، وفي وجْهِهِ الجميلِ قَلَق ؛ وكان رائعَ الحُسن ، حتى كان يُقالُ له القَمَر . كانَ إذا سمِعَ حركةً رفعَ رأسَه ونظر ، فزوجَتُه تضعُ ما في بطنها ، وهو يَطْمَعُ أن يكون المولودُ ذكرا ، ليكونَ أخا لبِكره المُطَّلب .

كان الشّابُّ عبدُ منافٍ ، ابنَ قُصيٍّ سيِّدِ قريش ، وما كانَ رجُلٌ أو امرأةٌ من قريشٍ يتزوجُ إلا في دارِ قُصَيّ ، وما كانَ النّاسُ يتشاورونَ في أمر ينزْلُ بهم إلاّ في دارِه ، وما كانَ لواءُ الحربِ يُعقدُ إلا في داره. كان قُصيٌّ يُطْعِمُ الفقراء ، ويُضيّفُ الحجاجَ

ويسْقيهم ، فشبَّ عبدُ منافٍ فى بيتٍ كريم ، فَتعلَّم الكرم ؛ ونشأ بين قوم يكرهُون ولادة البنات ، ويدْفنونَهن حيَّاتٍ خشْيَة العار ، فهو يخشَى أن تَلدَ امرأتُه بنْتا ، فظلّ ينْتَظِرُ وهو يضْطَرِب ، حتى دخلَ عليه البشيرُ وقال له :

ـ وضعت امرأتُك توءمَيْن ذكَريْن .

ففرِحَ عبدُ مناف ، وطلبَ أن يراهُما ، فلما جىء بهما ونظر إليْهما ، رأى عجبا : رأى أنهما متَّصلان ، إصبعُ أحدِهما متَّصِلةٌ بجبْهَةِ الآخَر : فجاء بمن يفصل بينهما ، فلما فُصِل الإصبعُ من الَجبْهة ، سالَ من ذلك دم ، وكان العربُ يتشاءمون ويتفاءلون ، فلما سال الدّمُ قالَ قائل :

ـ تكونُ بينَهما دماء .

وأطرقَ الواقفُون ، كأنما نطق القدرُ حكمه ؛ ستكونُ بين هَذيْنِ الوليدَين حروب . وقد صدّقَ

الزَّمنُ هذَا القول . كان أحدُهما هاشما — وإن سماهُ أبوه عمرًا ، وكان الآخرُ عبدَ شمس الذى سيُنْجِبُ أميَّة ، وستقومُ بيْن بنى هاشم وبنى أميَّةَ حروبٌ كثيرة ، كَانت فى بطنِ الغيْب فى ذلكَ الزَّمان .

٤

أصبحَ عبدُ منافٍ رجلاً عظيمًا فى قومِه ، وأصبح إخوتُه رجالاً عُظَماء ، إلاّ عبدَ الدَّار ؛ كان ضَعيفًا على الرّغمِ من أنَّه أبرُّ أبناء قُصىّ . وأرادَ قُصىٌّ أن يجعلَ من عَبدِ الدار الضعيف ، شريفًا مثلَ إخوتِه ، فناداه وقال له :

— أمَا واللّهِ لأُلحِقَنّكَ بالقوم ، وإن كانوا قد شُرِّفوا عليك . لا يدخلُ رجلٌ منهم الكعبة ، حتى تكونَ أنتَ تفتحُها ؛ ولا يُعقَدُ لقريش لواءٌ لحربهم ،

إلا أنتَ بيدِك ؛ ولا يَشْرَبُ رجلٌ بمكةَ إلاّ من سِقايَتِك ؛ ولا يأكلُ أحدٌ من أهلِ الموسمِ طعاما إلا من طعامِك ؛ ولا تقطع قُريش أمورَها ، إلا في دارِك .

ومات قُصَىّ ، وأصبحَ لعبدِ الدّار الحِجابة ، وهي الإذنُ بدخولِ الكَعْبَة ، واللّواء ، والرِّفَادة ، والسِّقَاية .

٥

شبَّ التوءَمان عمرٌو وعبدُ شَمْس ، وذاعَ أمرُهما بَينَ الناس . وفي ليلةٍ اجتمعا بأخيهما المُطَّلب ، وتحادثُوا في أمرِ أبناء عبدِ الدّار ، فوجدوا أنَّ قُصَيًّا قد ظلمهم لما أوْصَى لعبدِ الدّارِ بالرِّفَادةِ والسِّقايةِ واللّواءِ والحِجَابة ، بعد أن كانت الرِّفادةُ والسقايةُ في يد أبيهم . فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدِي بني

عبد الدّار ، فهم أحقُّ بـه منهـم ، لشـرفِهم عليهـم ، وفضلِهم فى قوْمِهـم . وطلبـوا من بنـى عبـدِ الـدار تسليمَ ذلك لهم ، فأبَوْا . فعزَمَ أبناءُ عبدِ منافٍ على أن يحاربُوهم ، حتى يـأخذُوا حقّهـم منهـم ؛ فـأخرجَ بنو عبد منافٍ ومنْ انضمَّ إليهم ، جَفنةً مملوءةً طيبا ، فوضعوها حـولَ الكعبـة ، ثـم غمس القـومُ أيدِيَهـم فيهـا ، وأقْسـمُوا أن يحـاربُوا حتـى يـأخُذوا الزّعامـةَ والسِّيادة .

وأخرجَ بنُو عبدِ الدّارِ ومن كان معهُم ، جَفنةً مـن دَم ، فغمسُـوا أيدِيَهـم فيهـا ، وتعـاهدُوا علـى أن يُدافِعُوا عـن الحِجابـةِ والسِّقاية والرِّفـادَة ، واسـتعدَّ الطرفان للقِتال .

ثم رأَوْا أن يصطلحُوا ، فاصطلحُوا على أن يـأخذَ بنُو عبدِ منافٍ السِّقايةَ والرِّفَادة ، وأن يأخذَ بنُو عبـدِ الدّار : الحِجابة ، واللّواء ، ودارَ النّدْوَة ، وهى الدّارُ

التى كانوا يجتَمعون فيها للتشاور فيما ينزِلُ بهم من أمورٍ .

وتولّى عمرُو بنُ عبدِ منافٍ السِّقايةَ والرِّفادة ، فقد كان رجُلاً غنيا ، وسافرَ توءَمُهُ عبدُ شمس إلى الشّام ، فقد كان يُحِبُّ الأسْفَار .

٦

أصبح عمرٌو زعيما فى قومِه ، وكان العربُ يخرجُونَ فى الشِّتاء إلى الصحْراء ودِفْئِها ، فرارًا من البرْد ، وبحثاً عن الماء والمراعى لأبلِهم ؛ ويَخْرُجُون فى الصَّيفِ إلى البلادِ المعْتدِلة ، فرارًا من الحرّ . ولاحظ عمرٌو ذلك ، فرأى أن ينظِّمَ ذلكَ الخروج ، وأن يجعلَ منه رحلةً للتّجارة ، فسنَّ لقريش رِحلتيْن : رحلةً فى الشتاء ، تخرج فيها القوافلُ إلى اليمن وإلى الحبشة ، حيثُ الدِّفْء ؛ ورحلةً فى الصَّيف ، تخرج

فيها القوافلُ إلى الشَّامِ ، حيث الهواءُ اللطيف ، والماءُ الزّلال .

ولم يكنْ طريقُ القوافلِ فى تلك الأيامِ آمنـا ، وكانت التجارةُ عُرْضَةً للسّلب والنّهب ؛ فرأى عمرٌو أن يُؤَمِّن الطريق ، فذهب إلى قيصرَ فى الشام ، واتفقَ معه على تأمين طريق القوافل ؛ وأرسلَ أخاهُ المطَّلبَ إلى نجاشىِّ الحَبَشة ، وملوكِ حِميرَ ، ليتفقَ معهم على تأمينِ طريق التجارة . فازْدهرت مكة فى عهدِه ، وأصبحت مركزًا تجاريًّا له مكانته .

وأصابت قريشًا سنةُ جُدبٍ شديد ، حتى أصبح الناسُ لا يجدون الطعامَ ، فلجئوا إلى عمرو ، فكان يقدِّم لهم ما عندَه حتى نَفِد . واشتدَّ الجوعُ بالناس ، فخرجَ عمرٌو إلى الشَّام ، واشترى دقيقًا كثيرا وكعكا ، وعادَ إلى مكة ، فقابَلهُ الناسُ بالبِشْر ، وراح يقدِّم لهم الطعامَ ، ويهشِم الخبز (أى يُكسِّره) ،

وذبحَ لهم إبلا ، ثم أمرَ الطُّهاةَ فطبخوا ، فأشْبَع أهلَ مكة ، ولم ينسَ القرشيُّون له صنيعَه ، ولا تهشيمَه الطعامَ لهم ، فسمُّوه هَاشِما .

٧

أنجبَ عبدُ شمس ولدا سمَّاه أُميَّة ، وشب أُميَّةُ فكان غنيا ، ورأى أُميَّةُ حبَّ الناس لهاشم ، فأراد أن يصْنَعَ مثلَه ، ليُحَبَّب النّاسَ فيه ، فراح يُنفِقُ الأموالَ ، ويُطعِم الفقراء ، ولكنّه عجزَ عنْ أن يفْعَلَ مثل هاشم ، فعيَّره الناسُ وقالوا له :

- أتتشبّه بهاشم ؟ ! أين أنت من هاشم ؟

فسبَّ أُميَّةُ هاشما ، وادَّعى أنه أفضل منه . ثمَّ طلب من هاشم أن يذهَبا معًا إلى من يَحكم بينَهما أيُّهما أفضلُ من الآخر ، فكره هاشمٌ ذلك لسنّهِ ومركزه ؛ ولكنَّ أميةَ أصرّ على التحكيم ؛ فلم يجد هاشمٌ مفرا من قَبولِ التّحدّى فقبلَ على شرط أن

يَذْبَحَ الخاسرُ خمسينَ ناقَةً للفقراء ، وأن يخرج من مكة عشرَ سنين ، فقبل ذلك أمية ، وجعلا بينهما حَكما .

وذهب هاشمٌ ومعه أصحابُه ، وأميةُ ومعه أصحابه إلى الحَكم ، فلما رآهُما قال :

- لقد سبقَ هاشمٌ أميةَ فى المفاخر .

فَنصرَ هاشمًا على أميّة ، فأخذَ هاشمٌ الإبل ، فذبحَها وأطعمها النّاس ، وخرج أميّةُ إلى الشام ذليلا . وكانت هذه أولَ عداوةٍ وقعت بين هاشم وأمية ، ولم يَدُرْ فى ذهنِ أميةَ أن أبناءَه الأمويّينَ سيكونُ لهم فى الشامِ ملك عظيم ، بفضل الرِّسالةِ التى سيأتى بها محمدُ بن عبد اللّه سليلُ بنى هاشم .

٨

خرج هاشمٌ على رأسِ قافلةٍ فى رحلةِ الصَّيف ، وكان يريدُ أن يتَّجرَ مع الشام ، وأن يحمِلَ بضائعها إلى اليمنِ والحبشة ، يبيعُها فى أسواقِها ، وفيما هو فى طريقهِ ، مرّ بيَثْرِب (المدينة) ، فصادفَ سوقًا كانت تُقام كلَّ سنة ، فنزل بها .

وبدأ البيعُ والشِّراء ، وإذا بامرأةٍ جميلةٍ واقفةٍ على موْضع يُشرِفُ على السّوق ، تأمرُ بما يُشْتَرَى ويُباعُ لها : فنظر إليها هاشم ، فرأى امرأةً حازمةً مع جَمال ، فسأل عنها ، وهل هى مُتَزوّجة ؟ فعلم أنها لا زَوجَ لها ، وقيل له إنها لشرفها فى قومها لا تتزوّجُ الرِّجالَ حتى يشرطُو لها أنَّ أمرَها بيدها ، فإذا كرِهَت رجُلا فارقتْه ، فأطرق يفكرُ فى الزواج منها ، ثم ذهب يخطُبها .

عرَفتْ سَلْمَى بنتُ عَمرِو بنِ زيد ، أن الـذى يخْطبها سيّدٌ فى قومِه ، عظيمُ النسب ، شـريفُ الأصلِ ، فقَبلت أن تتزوّجَه ، فصنعَ هاشِمٌ طعاما ، ودعا أصحابَه الذين كانوا معه ، وكانوا أربَعين رجُلا من قريش ، ودعا مـن أهلِ المدينةِ رجالا ، ودخل هاشِمٌ بسَلْمَى ، ومكثَ بالمدينةِ أياما ، ثـم غادرها وذهبَ إلى الشامِ وقد حَملت سَلْمَى .

ووضعت سَلْمَى ولدًا جميلا ، كـان فـى رأسِه شَيْبة ، فسُمّىَ شيْبة ، وراح هاشم يتردَّدُ على المدينةِ كلما خرجَ فى رحلةِ الصيفِ إلى الشامِ . وفى آخرِ رحلةٍ له اشتكى من ألمٍ نزلَ به ، وكان فـى غَزَّةَ من أرض الشام ، فدعا بعضَ أصحابِه ، ووصّاهم أن يحملوا تركتهَ إلى ابنِه شيْبة . ومات هاشم بغزّة ، وحمَل أصحابهُ تركتَه إلى المدينة ، ودفعوها إلى شيْبَة الصغير ، الذى ما كان يدرى ما يخبؤهُ لـه القَدَرُ من شرفٍ عظيم ، من أنهَّ يكونُ جدَّ محمدٍ رسولِ اللّه .